أجواء من العبث فى "المقامة الحُلْوَانية" لبديع الزمان الهمذانى

أولاً عرض: المقامة الحلوانية لبديع الزمان الهمذانى(*)

حَدَّثَنا عِيسى بْنُ هِشامٍ قالَ: لَمَّا قَفَلْتُ مِنَ الْحَجِّ فَيمَنْ قَفَلَ(1) وَنَزَلْتُ حُلْوانَ(2) مَعَ مَنْ نزَلَ. قُلْتُ لِغُلاَمِي: أجِدُ شَعْرِى طَويلاً وَقَدِ اتَّسَخَ بَدَنى قَليلاً. فَاخْتَرْ لَنا حَمَّامًا نَدْخُلهُ. وَحَجَّامًا نَسْتَعْمِلَهُ (3). وَلْيَكُنِ الَحَمَّامُ وَاسِعَ الرُّقْعَةِ(4)، نَظِيفَ الْبُقْعَةِ(5)، طَيِّبَ الهَوَاء. مُعْتَدِلَ الْماء (6). وَلْيَكُنِ الْحَجَّامُ خَفِيفَ الْيَدِ، حَديدَ المُوسَي، نَظِيفَ الثِّيابِ، قَلِيلَ الْفُضُولِ (7). فَخَرَجَ مَلِيًّا(8). وَعادَ بَطِيًّا. وَقالَ: قَدِ اخْتَرْتُهُ كما رَسَمْتَ. فأَخَذْنا إلي الحَمَّامِ السّمْتَ(9). وأَتَيْناهُ فَلَمْ نرَ قَوامَهُ (10)، لَكِنىِّ دَخَلْتُهُ وَدَخَلَ علي أثَرِى رَجُلٌ وَعَمَدَ إلي قِطْعَةِ طِينٍ فَلَطَّخ بِها جَبينِى وَوضَعَها عَلَي رأْسِى. ثُم خَرَجَ وَدَخَلَ آخَرُ فَجَعَلَ يَدْلِكُنِي دَلْكًا يَكُدُّ الْعِظَامَ(11)، وَيَغْمِزُنى غَمْزًا يَهُدُّ الأَوْصالَ(12).

(*) هو أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذانى أبو الفضل (358 – 398 هـ= 969 – 1008م): أحد أئمة الكتاب. له مقامات – ط، أخذ الحريرى أسلوب مقاماته عنها. وكان شاعرًا وطبقته فى الشعر دون طبقته فى النثر. ولد فى همذان وانتقل إلى هراة سنة 380هـ فسكنها، ثم ورد نيسابور سنة 382هـ ولم تكن قد ذاعت شهرته، فلقى أبا بكر الخوارزمى، فشجر بينهما ما دعاهما إلى المساجلة، فطار ذكر الهمذانى فى الآفاق. ولما مات الخوارزمى خلا له الجو فلم يدع بلدة من بلدان خراسان وسجستان وغزنة إلا دخلها ولا ملكًا ولا أميرًا إلا فاز بجوائزه. وكان قوى الحافظة يضرب المثل بحفظه. ويذكر أن أكثر "مقاماته" ارتجال، وأنه ربما يكتب الكتاب مبتدئًا بآخر سطوره ثم هلم جرا إلى السطر الأول فيخرجه لا عيب فيه!
وله ديوان شعر – ط. صغير ورسائل عدتها 233 رسالة ووفاته فى هراه مسمومًا. انظر فى هذا الأعلام، 115/1- 116.

(1) قفل: رجع. وانظر هذه المقامة فى: بديع الزمان الهمذانى: مقامات بديع الزمان الهمذانى. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد. القاهرة، مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية، 1342هـ/ 1923م، ص223- 234.

(2) حلوان: اسم بلد مما يلى الجبال من بغداد.

(3) الحجام: الحلاق، أصل الكلمة: الشخص الذى يقوم بمص الدم الفاسد من الجسم بالمحجمة.

(4) كبير المساحة.

(5) أى المكان الذى يستنقع فيه الماء.

(6) معتدل الماء: وسطًا بين البرودة والسخونة.

(7) الفضول: الزيادة، والمقصود هنا الكلام الكثير.

(8) مليًّا: وقتًا طويلاً.

(9) السمت: الجهة، والمعنى: أننا سرنا متجهين نحو الحمام لنقضى منه حاجتنا.

(10) قوّامه: صاحبه.

(11) يكدّ: يتعب.

(12) يهد: يكسر، الأوصال: المفاصل.

وَيُصَفِّرُ صَفِيرًا يَرُشُّ البُزَاقَ[1]، ثُمَّ عَمَدَ إلىَ رأْسِى يَغْسِلُهُ، وَإلى الْمَاء يُرْسِلُهُ[2]، وَما لَبِثَ أنْ دَخَلَ الأَوَّلُ فَحَيَّا أخْدَعَ[3] الثَّانى بمَضمُومةٍ[4] بمَضمُومةٍ[5] قَعْقَعَتْ أنْيابَهُ. وَقالَ: يالكَعُ مَا لَكَ وَلَهذا الرَّأْسِ وَهُوَ لى [6]. ثمَّ عَطَفَ[7] الثَّانى عَلى الأَوَّلِ بمَجْمُوعةٍ[8] هَتَكَتْ حِجابَهُ[9] وَقالَ: بَلْ هذا هذا الرَّأْسُ حَقِّى وَمِلْكِى وَفى يَدِى.

ثُمَّ تَلاكَما حَتَّى عيِيا. وَتَحاكَما لمِا بَقِيا[10]. فأَتَيا صَاحِبَ الَحَمَّامِ. فقالَ الأَوَّلُ: أنا صاحِبُ هذَا الرَّأْسِ. لأنى لَطَّخْتُ جَبينَهُ وَوضَعْتُ علَيْهِ طينَهُ. وَقالَ الثَّانى: بَلْ أنَا مالِكُهُ لأنى دَلَكْتُ حامِلَهُ، وَغمزْتُ مَفاصِلَهُ. فقَالَ الَحَمَّامِىُّ: ائْتُونى بِصَاحِبِ الرَّأْسِ أسْأَلُهُ، ألكَ هذَا الرَّأْسُ أمْ لهُ. فأَتَيَانى وَقالاَ: لَنا عنْدَكَ شَهَادَةٌ فَتَجَشَّمْ [11]. فَقُمْتُ وَأتَيْتُ. شِئْتُ أمْ أبَيْتُ[12]. فقالَ الَحَمَّامِىُّ: يَا رَجُلُ لا تَقُلْ غَيْرَ الصِّدْقِ، وَلا تَشْهَدْ بِغيرِ الْحقِ. وَقُلْ لى هذَا الرَّأْسُ لأبِيهِ ما. فَقُلتُ: يَا عافَاكَ اللهُ هذَا رأْسِى قَدْ صَحبَنى فى الطَّرِيق. وَطاف مَعى بِالْبَيْتِ الْعَتيقِ[13]، وَما شَككْتُ أنَّهُ لِى. فقالَ لِى: اسْكتْ يا فُضُولىُّ. ثُمَّ مالَ إلى أحَدِ الَخَصْمَين فقالَ: يا هذَا إلَى كمْ هذِهِ المْنافَسَةُ مَعَ النَّاسِ. بهذَا الرَّاسِ. تَسَلَّ عَنْ قَلِيلِ خَطَرِهِ [14]. إلى لَعْنَةِ اللهِ وَحَرِّ سَقَرِهِ. وَهَبْ أنَّ هذَا الرَّأْسَ لَيْسَ[15]، وَأنَّا لمْ نَرَ هذَا التَّيسَ. قالَ

---

(1) البُزاق: وكذلك البُساق والبصاق هو الماء الذى يخرج من الفم.
(2) يرسله: يصبّه.
(3) الأخدع: عرق فى العنق.
(4) المضمومة: اليد إذا انطبقت أصابعها سميت بذلك لانضمام أجزائها إلى بعض.
(5) أى أنا أحق به؛ لأننى أول من تعامل معه فى الحمام.
(6) عطف عليه: أى حمل عليه.
(7) المجموعة: مثل المضمومة أى ضربة قوية.
(8) هتكت حجابه: أضعفته.
(9) المعنى: ظل كل واحد منهما يضرب الآخر حتى أنهك الاثنان، فرضيا عند ذلك بمن يحكم بينهما.
(10) تجشّم: أى عليك تحمل المشقة فى أدائها.
(11) شئت أم أبيت: أى طوعًا منى أو كرهًا.
(12) العتيق: القديم، والمقصود الكعبة الشريفة لقدم بنائها.
(13) تسلّ عن قليل خطره: أى هوّن على نفسك شأن هذا الرأس.
(14) ليس: أى عدمًا ليس موجودًا.

عِيسى بْنُ هِشامٍ: فَقُمْتُ مِنْ ذلِكَ المْكانِ خَجلاً. وَلَبِسْتُ الثِّيابَ وَجِلاً (١)، وَانْسَلَلْتُ مِنَ الحَمَّامِ عَجِلاً(٢)، وَسَبَبْتُ الْغُلاَمَ بِالْعَضِّ وَالْمصِّ (٣)، وَدَقَقْتُهُ وَدَقَقْتُهُ دَقَّ الْجِصِّ (٤) وَقُلْتُ لآخَرَ: اذْهَبْ فأْتِنى بِحَجَّام يَحُطُّ عَنِّي هذَا الثِّقَلَ، فَجَاءنى برَجُلٍ لَطِيفِ الْبِنْيَةِ(٥)، مَلِيحِ الحِلْيَةِ(٦)، فى صُورَةِ الدُّمْيَةِ الدُّمْيَةِ (٧)، فارْتَحْتُ إلَيْهِ. وَدخَلَ فقالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ ومِنْ أىِّ بَلدٍ أنْتَ؟ فقُلْتُ: مِنْ قُمَّ (٨). فقَال: حَيَّاكَ اللهُ؛ مِنْ أرْضٍ النِّعْمَةِ والرَّفاهَةِ (٩) وَبَلدِ السُّنَّةِ والجَمْاعَةِ(١٠). ولقَدْ حَضَرْتُ فى شَهْرِ رمَضان جامِعَها وقَدْ أُشْعِلَتْ فِيهِ الْمَصابِيحُ، وأُقِيمَتِ الْتراويح، فمَا شَعَرْنا إلاَّ بِمدِّ النِّيلِ، وَقَدْ أتَى عَلى تِلْكَ الْقَنادِيلِ(١١)، لكِنْ صَنَعَ اللهُ لِى بخُفٍ قَدْ كُنْتُ لَبِسْتُه رطْبًا فَلْم يَحْصُلْ طِرَازُهُ على كُمهِ(١٢)، وعَادَ الصبى إلَى أُمِّهِ، بَعْدَ أنْ صلَّيْتُ الْعَتَمةَ (١٣)، واعْتَدَلَ الظِّلُّ(١٤)، ولكِنْ كَيفَ كَانَ حَجُّك هَلْ قَضَيْت مَنَاسِكَهُ كَما وَجبَ. وصَاحُوا: الْعَجَبَ الْعَجَبَ، فَنَظَرْتُ إلى الْمَنَارَةِ، ومَا أهْوَنَ الحرْبَ عَلى النَّظَّارَةِ(١٥). وَوجَدْتُ الهْرِيسَةَ على حالِها، وَعلَمْتُ أنَّ الأمْرَ بقَضَاءٍ منَ اللهِ وَقَدَر، وَإلى مَتى هذَا الضَّجَرُ، وَالْيَوْمُ وَغَدُ، وَالسَّبْتُ وَالأَحَدُ. وَلا

---

(١) وجلاً: خائفًا.
(٢) عجلاً: مسرعًا.
(٣) سببت: شتمت.
(٤) دققته دق الجص: أى ضربته ضربًا شديدًا.
(٥) البنية: الجسم.
(٦) الحلية: الشكل.
(٧) الدمية: الصورة سواء أكانت من عاج أم رخام، وجمعها الدُّمى.
(٨) قم: بلد فى إيران.
(٩) الرفاهة: العيش الهنئ.
(١٠) الجماعة: أى جماعة المسلمين والسواد الأعظم منهم.
(١١) نلاحظ أن كلام هذا الشخص فيه هذيان شديد.
(١٢) فلم يحصُل طرازه على كمه: ليس للخف علامات، وكلام هذا الشخص – كما قلنا – فيه تخريف ووضع للأمور فى غير مواضعها.
(١٣) صليت العتمة: أى صلاة العشاء.
(١٤) اعتدل الظل: اعتدال الظل يكون بالنهار، وبالطبع الكلام فيه تخليط.
(١٥) النظارة: من يشاهدون الحرب عن بعد.

أُطيلُ. وَما هذَا الْقالُ وَالقيلُ؟ وَلكِنْ أحْبَبْتُ أنْ تَعْلَم أنَّ ألمَبرِّدَ [1] فِى الَّنحوِ حَدِيدُ ألموسَى [2].

فَلاَ تَشْتَغِلْ بَقَوْل الْعَامَةِ، فَلوْ كانَتِ الاسْتِطاعَةُ قَبْلَ الْفِعْلِ [3] لَكُنْتُ قَدْ حَلقْتُ رَأسَك. فَهَلْ تَرَى أنْ نَبْتَدِئَ؟

قالَ عِيسى بْنُ هِشام: فَبقِيتُ مُتَحَيِّرًا مِنْ بيانِهِ، فى هَذَيانِهِ [4]، وَخَشيتُ أنْ يَطُولَ مَجْلِسُهُ فَقُلتُ: إلى غَدٍ إنْ شاءَ اللهُ، وَسأَلْتُ عَنْهُ مَنْ حَضَرَ فقَالوا: هذَا رَجُلٌ مِنْ بلاَدِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ لمْ يُوَافقْهُ هذَا المْاَءُ، فَغَلَبَتْ عَليهِ السَّوْدَاءُ[5]، وَهُوَ طُولَ النَّهارِ يَهْذِى كَما تَرَى وَوَرَاءَهُ فَضْلٌ كَثِيرٌ.

فقُلْتُ:

قَدْ سَمِعْتُ بِهِ وَعَزَّ عَلَىَّ جُنُونُهُ. وَأنْشأْتُ أقُول:

أنَا أعْطِى اللهَ عَهْدًا مُحكَمًا فى النَّذْرِ عَقْدا [6]

لا حَلَقتُ الرأسَ مَا عِشْتُ وَلوْ لاقَيتُ جَهْدا [7]

ثانيًا: تحليل المقامة الحلوانية

الأجواء التى نراها فى هذه المقامة هى أجواء عبثية بكل المقاييس؛ فها هو ذا عيسى بن هشام فى الحمام بدلاً من أن ينظِّف العاملون به جسده إذا بأحدهم يلطخ جبينه بقطعة من الطين، وإذا بآخر يدلكه بطريقة أقرب للضرب والإيجاع، ويدور بين هذين الحماميين حوار عبثى غريب

– يشاركهما فيه صاحب الحمام وعيسى بن هشام الذى يحاول أن يتمالك عقله خلال ذلك.

جاء فى المقامة الحلوانية وصفًا لذلك: "وما لبث أن دخل الأول فحيَّا أَخَدَع الثانى بمضمومة قعقعت أنيابه، وقال: يا لكع ما لك ولهذا

---

(1) المبرد: أديب ونحوى وإخبارى عاش فى القرن الثالث الهجرى، ومن أشهر مؤلفاته كتاب الكامل فى اللغة والأدب.

(2) كلام هذا الشخص فيه هذيان شديد – كما قلنا من قبل –، ولا يوجد ربط منطقى بين كلامه.

(3) الاستطاعة قبل الفعل: إحدى القضايا التى انشغل بها علماء الكلام.

(4) هذيانه: تخاريفه وتخبطه.

(5) السوداء: الجنون.

(6) عقدًا: واجب تنفيذه.

(7) الجهد: التعب والمشقة.

الرأس وهو لى؟ ثم عطف الثانى على الأول بمجموعة هتكت حجابه، وقال: بل هذا الرأس حقّى وملكى وفى يدى، ثم تلاكما حتى عييا، وتحاكما لما بقيا، فأتيا صاحب الحمام، فقال الأول: أنا صاحب هذا الرأس؛ لأنى لطَّخْتُ جبينه ووضعتُ عليه طينه، وقال الثانى: بل أنا مالكه؛ لأنى دَلكْتُ حامِلَه، وغَمَزْتُ مفاصله، فقال الحمامى: ائتونى بصاحب الرأس أسأله، ألك هذا الرأس أم له، فأتيانى وقالا: لنا عندك شهادة فَتَجَشَّمْ، فقمتُ وأتيت، شئتُ أم أبيت، فقال الحمامىّ: يا رجل لا تقل غير الصدق، ولا تشهد بغير الحق، وقل لى: هذا الرأس لأيّهما، فقلت: يا عافاك الله هذا الرأس، قد صحبنى فى الطريق، وطاف معى بالبيت العتيق، وما شككت أنه لى، فقال لى: اسكت يا فضولى، ثم مال إلى أحد الخصمين فقال: يا هذا إلى كم هذه المنافسة مع الناس؛ بهذا الراس؟ تسلَّ عن قليل خطره، إلى لعنة الله وحرِّ سقرِه، وهب أن هذا الرأس ليس، وأنَّا لم نَرَ هذا التَّيْس.

قال عيسى بن هشام: فقمتُ من ذلك المكان خَجِلاً، ولبستُ الثياب وجِلاً، وانسللت من الحمام عَجِلاً"(٦).

فقد رأينا الحماميين فى المشهد السابق لا يتحدثان عن عيسى بن هشام باعتباره إنسانًا بل باعتباره متاعًا، وعندما يُحكّمان صاحب الحمام فى الخصومة العجيبة بينهما حول أحقية كل منهما للرأس – أى لعيسى بن هشام – إذا بصاحب الحمام يفاجئ عيسى ويطلب منه شهادة حق، ويسأله من صاحب الرأس، فيرد بكل تعقل: إنه رأسى، ويعد صاحب الحمام هذه الإجابة العقلانية لغوًا من عيسى لا تتفق والجو العبثى فى هذا الحمام؛ ولهذا يحاول الإصلاح بين الحماميين بأن يتسليا عن صاحب هذا الرأس الذى يشبه التيس، ويعتبرانه كأنه لم يكن.

وفى هذه المقامة نفسها عندما يأتى خادم لعيسى بحجام ليحلق له رأسه إذا بهذا الحجام شخص مجنون يخلط فى كلامه، وعند ذلك تتحوّل المحادثة بين عيسى وهذا الحجام إلى "حوار من طرق واحد، يطلق الحلاق المجال فيه لجدل لا ينتهى من الاستنباطات غير المترابطة، وتكون النتيجة إخفاقه فى حلق رأس عيسى"(٧).

---

(٦) مقامات بديع الزمان الهمذانى، ص234-236.

(٧) جيمس توماس مونرو: فن بديع الزمان الهمذانى وقصص البيكارسك. ترجمة: أنيسة أبو النصر. مجلة فصول. المجلد الثانى عشر. العدد الثالث خريف 1993م، ص182.

وفى هذه المقامة يبدو أبو الفتح – وهو القائم بدور الحلاق فيها – مجنونًا بحق، ويسأل عيسى بعض الناس عن سبب جنونه فقالوا له: "هذا رجل من بلاد الإسكندرية لم يوافقه هذا الماء، فغَلَبَتْ عليه السَّوْداء، وهو طول النهار يهذى كما ترى، ووراءه فضل كثير، فقلتُ: سمعتُ به، وعزَّ علىّ جنونه"([1]).

وكلام ذلك المجنون لعيسى وهو يستعدّ لحلق رأسه كله تخليط – كما قلنا – تتداخل فيه الأماكن والأزمان وتتغير حقائقها، وتتغير على لسانه الحقائق التى نعرفها، ومن ذلك قوله لعيسى: "ومن أى بلد أنت؟ فقلتُ: من قُم، فقال: حيّاك الله! من أرض النعمة والرفاهة وبلد السنة والجماعة، ولقد حضرت فى شهر رمضان جامعها وقد أشعلت فيه المصابيح، وأقيمت التراويح، فما شعرنا إلا بمدّ النيل، وقد أتى على تلك القناديل، لكن صنع الله لى بخفٍّ قد كنتُ لَبِستُه رطبًا فلم يحصُل طِرازُه على كُمّه، وعاد الصبىّ إلى أمه، بعد أن صليتُ العتمة واعتدل الظل، ولكن كيف كان حجّك؟ هل قضيت مناسكه كما وَجَبَ، وصاحوا: العجبَ العجب؟ .... "([2]).

فالشخص المجنون فى الموقف السابق يصف (قم) بأنها أرض السنة والجماعة، وأنه صلى بها فى رمضان صلاة التراويح، مع العلم أن (قم) كانت – ولا زالت – مدينة شيعية، والشيعة لا يصلون صلاة التراويح فى المساجد.

وكذلك يعبث ذلك المجنون بالمكان وحدوده، حين يقول: إن نهر النيل قد فاض مرة فى مدينة قم، والمعروف أن نهر النيل فى قارة إفريقيا، ومدينة قم مدينة إيرانية فى قارة آسيا، ولا علاقة للنيل بقارة آسيا أو بمدينة قم على الإطلاق.

ومن هنا نقول: إن ذلك المجنون قد أحدث تشويشًا فى بعض الأمور المتعلقة بالمذاهب، وأحدث تشويشًا آخر يتعلق بالجغرافيا، والتشويش الأكبر الذى أحدثه يوجد فى "النسق السردى: كل جملة هى

([1]) مقامات بديع الزمان الهمذانى، ص242.
([2]) المصدر السابق، ص237.

نحْويًّا مقبولة، لكن الروابط المعتادة بين الجمل لم تعد تشتغل. وبعبارة أدق فإن العناصر المؤمِّنة لهذا الترابط (الضمائر وأدوات العطف) موجودة لكنها
لا تنجح فى إنجاز وطيفتها حين يقول الحجام ... "وعاد الصبى إلى أمه". لا ندرى على أى سابق تعود الجملة. ونفس الشىء فى "صاحوا" وأدوات العطف .. تشتغل فى الفراغ ولا تربط بين الجمل. والأمثال التى تفسّر أو تلخّص أجزاء السياق السابقة أو اللاحقة، تخفق هنا فى أداء هذا الدور وتبقى معلَّقة فى الهواء، فهى ذات معنى فى حد ذاتها، غير أنه لا رابطة لها بالمجموع"(٦).

وقد قال أحد الباحثين: إن الهمذانى جعل أبا الفتح فى هذه المقامة حجامًا مجنونًا حتى "يتخفّى وراء الجنون للأداء بآراء تتصل بالسياسة والعقائد"(٧).

ولكن هذا الرأى – فى ظنى – بعيد عن الحقيقة، فلم يرد على لسان ذلك المجنون فى المقامة الحلوانية إلا كلام فيه تخليط وعبث، ولا يحتمل أى نقد سياسى أو عقائدى أو اجتماعى أو فكرى.

وهكذا نرى أن عيسى لم يتعامل فى هذه المقامة إلا مع مجانين – أو أشباه مجانين – باستثناء الخادمين اللذين ذُكرا فيها. وكان دورهما محدودًا للغاية. أما الدور الأساسى فقد لعبه فيها هؤلاء المجانين – أو أشباه المجانين – وكان عيسى كالغريب بينهم، وقد ولَّد الحوار الذى دار فى هذه المقامة بين عيسى وهؤلاء المجانين – أو أشباه المجانين –، فكاهة عالية كما رأينا.

---

(٦) عبد الفتاح كيليطو: المقامات السرد والأنساق الثقافية. ترجمة: عبد الكبير الشرقاوى. الدار البيضاء، دار توبقال، ط2، 2001م، ص40.

(٧) د. عمر عبد الواحد: التعلق النصّى، مقامات الحريرى نموذجًا. المنيا، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط1، 2003م، ص105 وانظر أيضًا للمؤلف نفسه: السرد والشفاهية. دراسة فى مقامات بديع الزمان الهمذانى. المنيا، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط2، 2003م، ص77.